ثأر

بقلم : السيد عبد الرؤوف

عندما غادر شندى قريته فى اقصى الصعيد لم يكن فى نيته أن يعود .. كان آخر من بقى من العائلة بعد ان راح رجالها واحدا وراء الآخر فى عمليات الثأر المتبادلة بين عائلته وعائلة الابراشى أكبر عائلات القرية .. كان قد حصل على قدر من التعليم ومنعه أهله من الذهاب الى المدرسة خوفا عليه من القتل .. وعاش فى القرية يشهد مصرع أخوته واحدا وراء الآخر .. وفى كل مرة كان يشعر أن دوره يقترب .. ففى مقابل كل واحد من أخوته كان يقتل من العائلة الأخرى رجل .. وعندما بقى هو كانت عائلة الابراشى ما تزال مدينة لهم برجل .. وقتل هو هذا الرجل .. كمن له بين أعواد القصب وانتظر .. وطال انتظاره له ساعات .. وفى نصف الظلام سدد بندقيته ودوت فى الأفق اصوات رصاص .. وانتهى كل شىء .. كان أعد عدته لمغادرة القرية الى الأبد .. لم يكن مقتنعا بما يفعل .. ولكن هذه الأشياء لا تمارس باقتناع .. انها تمارس تلقائيا .. تماما كما يحرك الانسان يده يدفع بها ذبابة عن عينه .. وهناك لا يعتبرون القتل عيبا وكذلك الموت .. وهو كذلك لم يكن يعتبر الموت عيبا ومع ذلك كان يخاف منه .. وعندما انطلقت الرصاصات من بندقيته شعر بأن كل شىء قد انتهى .. كان يشعر بأنه يجب ألا يموت .. يجب أن يعيش وأن ينجب .. لابد أن يذهب الى مكان بعيد ..

خوفا من الموت .. ولكن موته يعنى موت العائلة .. لم يعد هناك رجال يحملون اسمها الا هو .. ولا بد أن يعيش ويترك أولادا يذكرهم بالقصة الخالدة ويعلمهم ويعدهم للانتقام ..

وغادر القرية وفى ذهنه صورة غامضة عن مستقبله .. لم تكن فى ذهنه اى فكرة عن المكان الذى يجب ان يذهب اليه .. يجب فقط ان يهرب .. ويهرب بسرعة .. والى اى مكان بعيد .. بعيد بالقدر الذى لا يستطيع معه أحد من عائلة الابراشى أن يصل اليه فيه ..وقد يرجع .. ولكن ليس قبل ان يكون قد اعد عدته لانتقام كبير يغطى كل خسائر العائلة .. وبعدها لا يهم أن يموت .. وسافر .. ركب القطار المتجه الى القاهرة وقرر ان يقيم هناك .. فى القاهرة بعض افراد العائلة انقطعت صلتهم بها منذ زمن بعيد .. ولكنهم قطعا سوف يمنحونه حمايتهم حتى يستطيع الحصول على عمل .. لقد كان يعيش فى قريته سيدا عزيزا .. وقد يعمل الآن خادما أو بوابا أو عامل بناء ولكن هذا لايهم مادام سيوفر له الحماية اللازمة بعيدا عن الجحيم .. ولكنه عاد فاستخف فكرة مقابلة هؤلاء الاقارب .. انهم قطعا سيثورون عليه .. انه هارب ويستحق الموت لا الحماية .. وقد يقتلونه بالفعل .. أو على الأقل يسبغون عليه احتقارهم بدلا من الاحترام المطلوب لرجل صفى ديون العائلة مع عائلة الابراشى .. وربما عرف أحد من عائلة الابراشى بمكانه .. اذن فسيقتلونه .. وبذا يكون كل ماعمله قد ضاع وضاع معه شرف العائلة .. وفكر وهو مستند براسه على زجاج النافذة البارد فى قطار الليل فيما لو كانوا فى القرية قد عرفوا بهربه وتتبعوه .. ولم يملك فى هذه اللحظة ان يمنع نفسه من النظر خلفه فى رعب .. ولكنه استبعد أن يكون أحد قد عرف من امره شيئا .. انه لم يخبر أحدا .. ولم يره أحد وهو يغادر البيت ومعه البندقية .. انهم حتما سيعرفون .. ولكن ذلك لن يكون قبل الصباح .. وفى الصباح سيكون فى حيث لا يعرف أحد .. وشعر بارتياح غريب عندما فكر فى انه قد أفلت بجلده من موطن الجحيم .. وتحسس بيده جيبه .. المحفظة فيها جنيهات كثيرة تكفى لأن يفتح محلا للبقالة .. ولكنه لا يريد هذا .. لا يريد أن يستقر فى مكان واحد .. واذا كان لابد من الاستقرار فلا يمكن ان يكون هذا قبل وقت طويل .. قد يستقر من الآن فى مكان واحد سواء بعد أو قرب ثم تصل أخباره الى القرية وهنا لابد أنه سيلقى نفس المصير التعس الذى كان سيلقاه لو انه بقى هناك .. انهم لن يسكتوا عنه .. سيظلوا يتتبعون أخباره حتى يعثروا عليه .. ولذلك لابد من تضليلهم .. لابدمن الترحال .. وفكر فيما يجب ان يفعله .. ان أهل قريته معظمهم فقراء وكثيرون منهم يهجرون القرية بسبب الشظف الذى يعيشون فيه .. وكثيرون منهم يعملون فى التراحيل التى لا تكف عن التنقل من مكان الى مكان .. فكرة .. ولكن ..

ماذا لو تقابل مع واحد من هؤلاء ؟..
انه ليس فقيرا بالدرجة التى تدفعه الى العمل فى التراحيل .. سيكون اذن هناك كلام ولن يمكنه الهرب من مصيره التعس .. ولكن فكرة اخرى .. فكرة جميلة طرأت عليه .. ولعن غباءه لانه لم يفكر فيها منذ البداية .. يمكنه أن يبيع قماشا .. انه يسمع عن كثيرين فعلوا ذلك ونجحوا وعاشوا بعيدا عن الفقر .. أثواب قليلة من القماش توضع فى لفة كبيرة .. وعصا .. ويحملها على كتفه ويتنقل .. وسوف يجد قلوبا تتسع له .. انه غريب .. وهناك أناس كثيرون يشعرون بالحنان نحو الغرباء .. ربما لخوفهم من أن يصبحوا هم أنفسهم غرباء .. وربما لأن لهم أولادا بعيدين عنهم .. بل انه هو نفسه رغم أنه لم يسبق له أن ترك بلدته .. ورغم أنه ليس له عزيز يعيش بعيدا عنه الا أنه يشعر بالميل للعطف على الغرباء .. وحتى لو لم يجد عطفا من أحد .. فانه بحاجة للعطف .. ان الناس مهما بلغت قسوتهم لن يكونوا فى مثل قسوة القدر الذى شاء له أن يعيش عشرين عاما وأكثر فى خوف دائم من الموت .. والموت بلا سبب معقول أو حتى غير معقول .. والذى شاء له الآن أن يتشرد بعيدا عن القرية التى لم يعرف شيئا وراء حدودها الا فيما قرأه من كتب أيام كان فى المدرسة .. لقد كان هذا القدر قاسيا فى حكمه .. ذلك الحكم الذى بدأت قصته بأعواد قصب اقتلعها أحد أجداده بدون قصد من حقل رجل من عائلة الابراشى .. هذا القدر قاس والناس لا يمكن أن يكونوا فى مثل قسوته .. وهو حتى لا يريد حنانا انه يريد حماية .. وهذه الحماية لا يطلبها من الناس .. انه سوف يجدها فى التنقل .. ومشكلة السكن والاستقرار .. انه يمكن أن يبيت فى أى مسجد .. يمكنه أن يستأجر بيتا أو حجرة لمدة قصيرة ثم يغادرها .. حتى لو اضطر لاقامة خيمة ينام فيها .. ان هذا الترحال هو فترة مؤقتة لابد بعدها من الاستقرار .. بعد أن تكون القصة قد غطى عليها الزمن .. بعد أن يكون الناس قد نسوا الى حد ما .. ولكن من سينسى! انهم هناك لو نسوا كل شىء فلا أن يمكن أن ينسوا هذه القصة .. قصة الهارب .. الجبان ..

وضاق صدره .. ضاق وانقبض .. وشعر كأنه يتسحق .. شعر كأنه وضع بين تروس ساقية يشدها ثور قوى .. وبيد مرتعشة حاول أن يلف سيجارة .. ولكن الورقة تمزقت فى يده وتساقط منها التبغ فوق جلبابه الأسود .. وتذكر أن فى جيبه علبة سجائر فأخرجها وأشعل سيجارة .. لم يشعر لها بطعم .. شعر بجفاف فى حلقه .. وتلمس كوب ماء .. ولكن لا أحد هناك .. الغرفة خاوية .. ليس فيها أحد على الاطلاق .. النور فيها ضعيف باهت يزيد من شعوره بانقباض .. وحاول أن يتشاغل بالنظر من النافذة .. ولكن الظلام يلف كل شىء .. وفى البعيد .. فى البعيد كان ضوء خافت .. وحاول أن يشغل نفسه بالنظر الى الضوء وهو يبتعد ويطويه الظلام .. وسمع صوتا يقول له أيها

هارب .. ايها الجبان .. والسفت خلفه فى ذعر .. ولم يجد أحدا .. وندم على أنه ترك البندقية .. لو أنه حملها معه اذن لضمن لنفسه الحماية على الاقل حتى يصل الى القاهرة . فالليل صامت ورهيب .. وضجيج القطار يلهب رأسه .. البرودة التى تقتحم العربة من بعض النوافذ لا يشعر بها .. لايشعر بشيء .. رأسه تدور وتدور وجسمه يغلى والعرق يكتسح جبينه ليغرق وجهه .. والصق وجهه بالنافذة ونظر فى الظلام البعيد .. قرية هناك ترقد فى قلب الرمال .. ومنها تاتى أضواء خافتة .. شبه ميتة .. ودارت الأضواء ودارت .. وكأنها مشاعل فى حلقة نارية فى مشهد بالسيرك ..وظلت تدور وتدور..ومعها ينقبض أنفه ويتسع .. وكفت الأضواء عن الدوران وتركزت .. تركزت وقل عددها وأصبحت عينين اثنتين .. لم يستطع أن يتبين ملامح الوجه .. ولكن العينين تحدقان فية .. وبدات صورة الوجه تكتمل .. انه لا يعرف صاحب الوجه .. لا لا لا .. انه الآن يعرفه .. رشوان ..الشقيق الأصغر للرجل الذى قتله اليوم .. وقالت العينان دورك الآن .. وصفع النافذة بيده .. ولكن زجاجها لم يتحطم وتمنى لو كان صفعها برأسه حتى تتحطم وتتحطم رأسه معها .. وكف عن النظر من النافذة ووضع رأسه بين يديه .. ودارت رأسه من جديد .. وشعروكأنه مريض بالتيفوس .. حلقه جاف .. وكل الأشياء فقدت معناها عنده .. الكرامة .. العائلة .. الاسم .. الشرف .. لاشيء يبقى فى ذهنه الا انه جبان .. هارب .. متخاذل .. لابد ان يعود ويواجه مصيره .. لابد ان يعود .. ولكن كيف يعود الان .. انه يقترب من الخلاص .. مئات الأميال قطعها بعيدا عن الجحيم فكيف يعود..؟ بل لابد ان يعود .. لا يهم ان يموت .. المهم أن يبقى للعائلة شرفها .. عندما يموت سيعرف أقرباؤه فى القاهرة .. لقد انقطعت صلتهم بالعائلة والقرية منذ زمن بعيد .. ولكنهم سوف يمارسون الشيء التلقائى الذى مارسه هو .. اذن سيعود .. سيعود .. وتحرك نحو الباب .. ولكنه تذكر أن القطار يسير .. فعاد الى مكانه ..

وفى الصباح كان القطار يقف فى احدى المحطات .. ونزل بسرعة .. كان هناك قطار آخر ذاهب الى الصعيد .. انتقل الى الرصيف الآخر وكان القطار يتحرك .. وبسرعة قطع تذكرة .. وجرى نحو القطار .. وكان القطار يسير .. وأمسك بمقبض الباب .. وظل يجرى مع القطار .. ولكن شيئا ما كان يجذبه الى الخلف .. صوت مما كان يحذره : لا تعود .. وصوت آخر كان يصرخ فيه : لابد أن تعود .. وفجأة شعر بشيء يجذبه الى الأرض .. وحاول أن يقاوم .. ولم يستطع .. وسقط .. سقط فى الهوه بين الرصيف والقطار .. وسمع الناس فى المحطة صرخة ألم .. وعندما غادر القطار المحطة كانت على الشريط اشلاء رجل وحولها بركة من الدماء ...